

3 - الالفية ، وجمع الجوامع

كان نظم الشعر سهلا على ابن مالك ، وكان ابن فودي شاعرا ولذلك فقد استطاع كلاهما التأليف في علوم العربية نظما ، ومن اهم ما الف ابن مالك منظومته في النحو والصرف المسماة بالالفية ، لانها مكونة من الف بيت وكان قد سبقه الى نظم النحو في الف بيت استاذه ابن معطي .

وقد اهتم الشراح بالفية ابن مالك ، واحتلت شروحها مكانة كبيرة في العصور المتأخرة للحضارة الاسلامية ، كما ان اكبر معهد للثقافة العربية الاسلامية كان يشترط على طلبته حفظ هذه الالفية .

جَمْعُ الجوامع لابن فودي محاولة نحوية ضخمة تكونت من اربعة آلاف ومائتين وخمسة واربعين بيتاً ، والفرق العددي الكبير بين الالفية والجمع كان كقبلا بَلَّفَتْ انظار الباحثين ، الى منظومة ابن فودي لكني لا أجد من تناول هذا العمل الضخم او من رصده في السلسلة التطورية للنحو العربي .

والصفحات التالية موازنة بين ابن مالك وابن فودي في افتتاحيتي المنظومتين وفي اول موضوع يقرؤه القارئ فيهما ، وهو اجزاء الكلام .

4 - الافتتاحية وما تشير اليه من اخلاق وانفسار في المنهج :

قال ابن مالك :

قال محمد هو ابن مالك
احمد ربي الله خير مالك
مصليا على النبي المصطفى
وآله المستكملين الشرفا

وقال ابن فودي :

الحمد لله على تسهيل
فتح الاعادي المعني النبيل

.....

ثم صلته مع السلام
على نظام جملة الانام
ذي الكلم الوجائز الجوامع
وصحبه غيوثا الهوامع

بلاحظ ان ابن مالك افتتح الفيته بتقديم نفسه ، مقدما هذا على حمد الله ، واختار لتقديم نفسه الفاظا تفسى على اسمه رحبة وهيبة ، لانه يذكر القارئ بانه (ابن مالك) ، والله هو (المالك)

اما ابن فودي فلم يقدم نفسه على الاطلاق ، وافتتح كتابه بالحمد .

وعلى حين يذكر ابن مالك حمد الله ، والصلاة على النبي في جبل ثانوية ، وفي صورة الحال ، نرى ابن فودي يحمده الله سبحانه وتعالى بجملة اسمية اصلية تفيد التأكيد والتقوية .

وبقية افتتاحية الالفية ترينا أن ابن مالك يحل ألفيته محلا عاليا ، ويفضلها على الفية استاذه ، فينسى في مجال الفخر أن يحمده الله من أجل ما قدمه فيها ، وكأن حمد الله كان ضرورة وجب اتباعها في افتتاح العمل فقط .

اما ابن فودي فقد اخذ حمد الله لديه معنى الشكر ، لانه يقرن هذا الحمد بالاسباب الداعية اليه ، وتبدو في هذه الاسباب امانته في ذكر اسماء الكتب التي اناد منها في كتابه ، وتواضعه الشديد امام من سبقه من العلماء ، وان كان لا ينسى ان يفخر بما سطره في كتابه ، لكن الفخر هنا اتى في مكانه الصحيح ، لانه افتخر بعد ان نسب الفضل لاهله ، ويمكن اعتبار الفخر لدى ابن فودي من باب (واما بنعمة ربك فحدث) .

وصلاة ابن فودي على النبي صلى الله عليه وسلم تمت بطريقة فيها طرافة وذكاء شديداً - وان كنت أشك ان ابن فودي كان مدركاً للحقيقة التالية -

محمد صلى الله عليه وسلم - كما قال ابن فودي -
(نظام جملة الانام) .

وفي هذه العبارة لفظتان فنيان تستخدمان الآن
في الدراسات اللغوية ويتوقف على ادراك حقيقتها
نهم التحليل النحوي للغة ما ، تلكما اللفظتان هما
(نظام) وهو مجموعة النماذج النحوية للجمل ، و (جملة)
وهي تلك الطريقة المعينة من رصف الكلمات في
(نموذج) هو بدوره فرد من افراد النظام ولا يتصور
نحو لغة من اللغات الا اذا تصور مجموع نماذج جملها
أو نظامها .

كما ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان
(قد اوتى جوامع الكلم) . وهذا امر يلفت نظر الدارس
لنحو اللغة العربية ، فهذه الصفة من صفات الرسول
مناسبة لموضوع هذا الكتاب كما ان ابن فودي
استخدمها في اختيار عنوان كتابه .

وإذا كان ابن مالك قد حكم لالفية بانها تفوق
الفية استاذة ، فان ابن فودي يصرح بانه احتذى منوال
(جمع الهوامع) بشرح جمع الجوامع للعلامة السيوطي
الذي كان له سمعة كبيرة بين علماء افريقيا الغربية .

والصفة التي وصف بها ابن فودي كتابه ، والتي
بها تميز عن كتاب استاذة ، ليست صفة التسوق او
الغلبة التي نشهدها لدى ابن مالك ، بل هي صفة
اقرب ما تكون الى وصف المنهج الذي اتبعه وبيان
الفرق بين كتابه وكتاب استاذة ، فقد كان - رغم
اقتدائه بالسيوطي - يزيد احيانا لتكملة نقص فئات
السيوطي ان يستوفيه ، وينقص احيانا ربما تجنبها
للإطالة والحشو ، كما كان لا يلتزم الترتيب الذي كان
عليه كتاب السيوطي ، بل كان يقدم بعض الابواب ،
ويؤخر اخرى لمقتضى دعا الى ذلك ، يقول في ذلك :

وربما انقص او أزيد

لعلة ونيل ما يفيد

وربما قدمت او اخرت

لمقتضى داع الى ما اخترت

وحين نوه ابن مالك بأسبقية استاذة (ابن معطي)
لم ينس أن يقدم نفسه عليه وهو يطلب من الله منحهما
الهبسات والنعم الوافرة . يقول :

وهو بسبق حائز تفضيلا

مستوجب ثنائى الجميلا

والله يقضى بهبات وافرة

لى وله فى درجات الآخرة

اما ابن فودي فانه ما طلب لنفسه ولا لاستاذة
اي نوع من الجزاء والثواب ، بل طلب من الله أن
يديم نفع الطالبين بكتابه وان يقرب احكامه دوما الى
عقولهم . يقول في ذلك :

وأسأل النفع على الدوام

به مع التقريب للانها .

واخيرا اذا كان قد فات ابن مالك ان يتحدث
عن اقسام الفية فان ابن فودي لم يفته هذا ، وذكر
ان كتابه :

منحصر يأتي على مقدمة

وسبعة من كتب وخاتمة

فامتاحة هذين العاملين تفتحا على عالمين من
طرازين مختلفين ، عالم فخور بنفسه ، يقدمها على
غيرها ، نادا ذكر الآخرين نكرهم بسرعة ، كما يتوقع
ان يثاب على عمله ، ذلكم هو ابن مالك . وعالم آخر
متواضع ، ينسى نفسه في حين يبسط ذكر ابياتذته ،
ومصادر معلوماته ، كما لا يطلب الجزاء على عمله ،
وانما يبغى النفع الدائم به ، ذلكم هو ابن فودي .

ومن الناحية المنهجية الاخط في ابن مالك تسرعا
في تقييم كتابه ، ونسيانا لتقديم اجزائه ، على حين
نشهد في ابن فودي وصفاً لمنهجه في التأليف ، وحرصا
على ذكر الاقسام التي يتألف منها الكتاب .